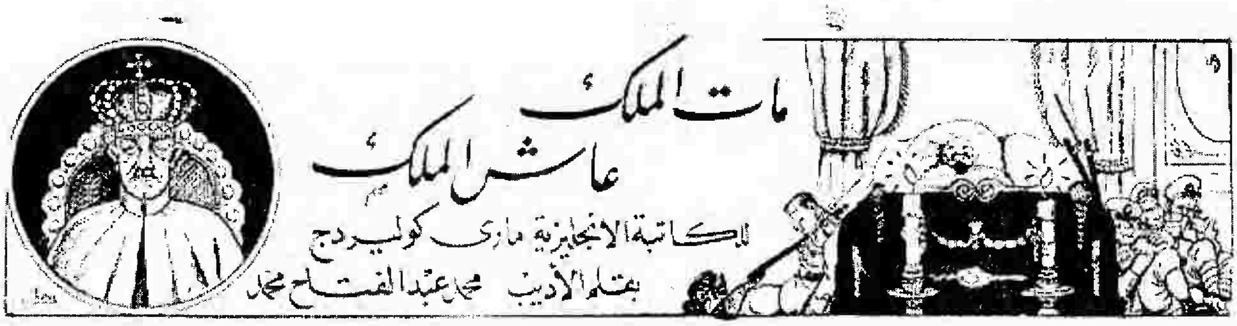

مات الملك عاش الملك

للكاتبة الانجليزية مارى كوليردج
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

لم يكن السكون شاملا ولا الصمت كاملا فى القاعة الرحبة التى خيم عليها جلال الاحتضار وغشيها الموت . هناك حيث رقد الملك مستسلماً إلى تلك القوة الخفية التى استولت عليه لتنتزع منه سر الحياة . وكان الناس بين غاد ورائح ، يتهامسون فى سكون وحذر كأنما يخشون أن يزعجوا ذلك الذى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، على الرغم من أن الطبيب الخاص لجلالته قد أذاع أن عليله لم يعد يسمع شيئاً .

وكان أولى بالمحتضر أن يتململ لنحيب زوجه الصغيرة الحسناء وقد جثت على حافة سريره ، لو كان دبيب الفناء فى بدنه قد ترك له شيئاً من حس السماع

وروعى فى الاضاءة ألا تكون قوية باهرة ، وفى الستائر أن تظل مسدلة كيلا يؤذى الضوء عينى الراقد الجليل ، على الرغم من أن الطبيب قد أكد أن جلالته أصبح لا يرى شيئاً

ولم يسمحوا لانسان ما أن يدنو من الفراش ما عدا أولئك الذين له فى قلوبهم أخلص الحب وأشد الوفاء ، على الرغم من أن الطبيب قرر أن صاحب الجلالة أصبح لا يعرف من الناس أحداً

رقد وقد تدلت يده الكريمة من الفراش كأنما تبحث عن شيء ، فتناولتها الملكة بين يديها منتحبة معولة ؛ بيد أن الملك لم يستطع أن يجيب على ضغطها ايده بالمثل ، لأنه كان فى واد آخر غير واديها . ولوحظ أن الفم قد انطبق ، والعينين أسبلتا ، والقلب كأنه كف عن وجيبه الدائب

ودار الهمس :

— يا لله ! ما أروعه ! ما أشد جلاله !

كانت غشية الموت قد أصابت الملك ، ولكنه أفاق منها فرأى الصمت المروع الرهيب قد شمل القاعة . صمت سحرى فى روعته ، جليل فى رهبته . ووجد نفسه من كثرة الازهار الفواحة فى مثل الفردوس الذى وعد الله عباده المتقين . ورأى فى نهاية الفراش عند قدميه شمعتين ترسلان ضوءاً خافتاً مرتعشاً ، يخفق كخفقان قلب العاشق . وكان رأسه هو الذى تحرر من الغطاء المخملى اللين الملقى على بدنه الجليل ؛ ورأى على ذلك الضوء الذابل الضئيل أربعة ، بل خمسة رجال حول السرير يغطون فى نوم عميق

وشاع فى نفسه فرح شديد حينما استطاع أن يتحرك . وما كادت ساعة القصر الكبيرة تنتهى من دقاتها الاحدى عشرة حتى أحس بقوة الحياة تطرد من جسده ضعف الموت . فهب من رقدته جالساً وهو يضحك ضحكة خفيفة

ما هذه القوة الغاشمة التى كادت تودى به على حين يرى بلاده فى أشد الحاجة إليه ، ولكن صوتاً خفيا هتف بالملك من وراء الغيب يقول :

« أيها العبد ! سأمنحك الحياة ساعة بعد هذه الموتة . وإذا عثرت فيها على ثلاثة يشق عليهم فراقك جملتك من الخالدين »

إذن فهذه ساعته . ساعته التى انتزعها من الموت انتزاعاً . كم يا ترى مر منها ؟

لقد كان ملكا عادلاً كاوء العين لا يغفل عن راحة شعبه ، جرئ الصدر لا يعرف من الخوف سبيلا إلى قلبه ، ولكنه يحب الحياة . لله ما أجاها ! لقد عرف الآن قيمتها لديه . على أنه لا يحب الحياة لذاتها ، ولا يتعلق بها لذاته ؛ إنما يهوى الحياة لأن أعماله لم تتم ، وآماله لم تحقق ، ورسالته لم تؤد على وجهها الأكمل

وارتدت الأشياء فى عينيه ثوبا جديداً وهو يغادر الغرفة ماراً بالحراس النائمين . وفارقه شعور السخط والتبرم بالقوة الظالمة التى سلبته الحياة

وقلب الأمر على جميع وجوهه ، ونبذ العاطفة وحكم العقل ، وقال فى نفسه : « إن البلاد حقاً فى حاجة إليـه ، ولـكن هناك من يعدله من الرجال أو يفضله . وإن الدنيا المليئة بالعقول الناضجة والقلوب الكريمة . العالم وسيع ، وإنه ليراه الآن أوسع . كل شيء يبدو فى ناظريه أكبر مما كان من قبل . لقد نبذته بلاده الآن وهجرته بعد أن أفنى عمره فى السعى لها والحدب عليها!

وتردد لدى الباب : أين يذهب أول الأمر ؟ أيذهب إلى زوجه ؟ كلا ، لا ينبغى أن يراها الآن ، فعيناها قرحهما البكاء ، وجسمها هده الحزن

يجب ألا يراها إلا حين يستطيع أن يضمها إلى صدره ، ويرى دموع الفرح بعودته إلى الحياة تنضح أسيل الخد ، كقطرات الطل على نضير الورد .

إن أمامه ساعة ليس غير ، سيعود بعدها إلى الحياة ويكون هذا الحلم المزعج قد مر بسلام

وتنفس الصعداء عند ما مر ذلك بخاطره ، ثم غمغم قائلا :

— ستعود الأمور إلى مجراها بعد حين

واستذكر لحظاته الأخيرة ، ثم استدار وسرح البصر فى فراشه وقال :

— غير أنى لم أكن يوماً ما جبانا ولا رعديداً .

وابتسم حينما ذكر المهلة التى منحها إياه الصوت الهاتف

ونظر أمامه فألفى ملكه الواسع المريض عند تحت ضوء القمر الزاهر ، فقال لنفسه :

— سأجد ولا ريب ثلاثة آلاف عوضاً عن ثلاثة ، أليس الكل أصدقائى وأحبائى ؟

ومر عند ما ترك باب القصر المنيف بطفل يبكى بكاء مراً ، فقال له فى عطف :

— ما خطبك أيها الصغير ؟

فأجابه الطفل من خلال النحيب :

— لقد فارقنى أبواى وذهبا إلى القصر من جراء موت الملك ولم يعودا بعد . وإنى كما ترى وحيد تعب جائع ، ولم أتناول عشائى حتى الآن ؛ ثم إن دميتى تحطمت . ألا ليت الملك يعود إلى الحياة ثانية !

وانهمرت مسارب عينى الطفل واشتد نحيبه ، فسر الملك أشد السرور ، وقال فى نفسه :

— هاهوذا أحد أفراد شعبى يتمنى لى عودة الروح

ولم يكن لديه بنت ولا ابن ، فأراد أن يداعب الطفل ويلهيه ، ولـكنه آثر أن يمضى إلى شأن أهم إذ كان فى طريقه إلى منزل الرجل الذى أدناه

من نفسه وآثره على غيره

وخامره شعور غريب ، وخشى ألا يجده فى منزله ، وقال :

— يا لأمياس المسكين ! إنى سعيد إذ لم يمت حزناً على ، فلا أستطيع احتمال فقده ولا الحياة من بعده . وألفى حينما دلف إلى منزل صديقه المشاعل تغدو وتروح محمولة والجياد مسرجة ؛ وبلغت أصوات الهرج والمرج مسمعيه ، فتلفت هنا وهناك ، ولكنه لم ير الوجه المألوف . وأبصر باباً مفتوحاً ، فتسلل منه ، ولكنه لم يعثر على صديقه ؛ وبحث عبثاً فى غرفه . كانت كلها خاوية ، فانتابه هلع شديد . لم يقتله الحزن ولا ريب ! . وبلغ الجناح الذى تساقيا فيه الصفو على غرة من الليالى ، ولم يجده هناك أيضاً . رأى الكتب مبعثرة والزجاج متناثر الشظايا على بلاط الغرفة

ولمح إطار صورة ملقى على الأرض ، فالتقطه فكانت صورته وقد تحطم الاطار ، فتركه يسقط من يده ثانية كأنما لسعته نار تندلع منه

وانتحى ناحية الموقد الكبير فى ركن من القاعة ، وكان قلبه يتأجج بالجمر كأنه المحب اليائس فرأى بقية من رسالة لم تمسها النار بعد ؛ كانت رسالة كتبها بخطه إلى صديقه الحميم ؛ فتناولها ومر ببصره عليها ، فألفاها آخر رسائله إليه كان قد ذكر له فيها تفاصيل مشروع اعتزم القيام به

وما كاد يطعمها النار الملتهبة حتى دخل القاعة شخصان يتحادثان : يقول الرجل للمرأة :

— أين أمياس ، ألا تعلمين ؟

— ذهب ليقدم ولاءه للملك الجديد ، إذ نحن كما تعلم فى قلق مستمر ، وهذا الملك ليس على شاكلة سلفه من حيث الآراء الغريبة ، وقد كان سلفه يحمل له المقت والكراهية ؛ وقد عمل أمياس الماكر على أن يفسح لنفسه مكاناً فى البلاط الجديد ، وآمل أن يكون قد أفلح . لقد أقسم إلى أنه كان يستهجن سياسة الملك القديم . لا مرية فى أنه كان يحبوه العطف واللطف والحظوة ، ولكن يجب ألا نحكم العاطفة إذا إردنا الرغد فى العيش . وقد بدأ خطته حين مات الملك ؛ وها أنذا أرسل أمتعته فى أثره

— حسن جداً !

قالها الرجل الذى عرف الملك فيه أحد سفرائه ، وقال بعد برهة :

— سأتبعه فوراً . وإنى أقول لك والكلام بينى وبينك ، أن ذلك لصالح الدولة ؛ فالملك الجديد أرعن طائش لا يدرى ماهية الحكم . لقد أمرنى أن أعقد صلحاً لا يتفق وما شيدنا من قصور الآمال ؛ غير أن الحرب قائمة لا محالة . ولا أكتمك أنى لو كنت أطعت أمره لعزت الترقيات فى الجيش وشحت المناصب

ولم يطق الملك سماع بقية الحديث ، فانصرف وهو يقول فى نفسه :

— لأذهبن إلى أصدقائى ، فهم على الأقل لا يجنون شيئاً من مداهنة خلقى ، ولعله يجردهم من كل ما وهبتهم إياه

وسمع الساعة الكبيرة تدق ربع الساعة الأول وهو يسير . لقد كان ملكا حكيما ، إذ اتخذ سبيله إلى أفقر الأحياء فى مملكته ، وقد زار هذه الأمكنة من قبل متخفيا ، فأثرى نفسه ما هم فيه من المسكنة والفقر

ولم يكن أحد يعلم من أين أتته تلك الحمى الخبيثة التي أودت بحياته ، حتى هو نفسه لم يكن يعلم علم اليقين ، وغمغم ضاحكا :

— سوف لا تمس الحيات جسمي بعد الآن

وكانت منازل الحي الوضيع تدل على فقر مدقع وبؤس شديد ؛ وكانت الأمراض والأدواء تبدو واضحة على وجوه الأهلين البؤساء الذين وقفوا جماعات على قارعة الطريق يتهامسون ويرددون اسمه من حين إلى حين . كان اسمه جاريا على كل لسان ، شاغلاً كل ذهن ؛ وسمعهم فيما سمع يرددون النشرات الطبية التي أذيعت عليهم ويحزرون اليوم الذي يشيعونه فيه إلى مقره الأخير . عجباً ! يظهر أنهم بموته مغتبطون

وفي إحدى المواخير أبصر خمسة رجال حول مائدة يحتسون شرابا، فوقف يتسمع إلى حديثهم ؛ وسمع أحدهم يقول :

— حمداً لله على خلاصنا منه . فما فائدة ملك يضن بفلس واحد زيادة عما أمر به . ولايخفى عليكم ما في ذلك من كساد تجارتنا . أما الملك الجديد فيبدو لي أنه من صنف آخر . وستروج بضاعتنا في حكمه وايم الحق . فقال آخر :

— أجل . لقد كان ملكا لا يطاق . كان يطاردنا ويحرم علينا اللهو . بأي حق كان يفعل ذلك ؟ أريد أن أعلم

فقال ثالث :

— أما أنا فأقول . ليسقط ذوو التيجان . فان كان لا بد منهم فليتركونا وشأننا . وإني لأوثر شاباً لا ينصاع لما تمليه عليه سالبات النهى الكواعب

وقال رابع :

— لقد طالما حاول أن يعبث بالقانون . كان أولى به أن يهتم بالأبرياء الذين يغيبون في السجون . إن في الأمر شيئاً ولا ريب

يا لله ! كأنما التأم هذا الجمع للنيل منه والقدح فيه

ودقت الساعة الربع الثاني حينما ابتعد الملك عن هؤلاء الرعاع

وأحس دافعاً قوياً دفعه إلى عدو له كان يكيل له السباب والشتائم فيتقبلها منه هاشاً باسماً ، واتخذ سبيله إلى السجن قدماً . وانتقى غرفة منه تضم بين جدرانها الدكناء رجلاً واحداً يكتب مستنداً على إحدى ركبتيه . فأدام الملك النظر إليه ، وسرعان ما دخل حارس السجن يرافقه رئيس مجلس الشورى ، وهو رجل كان يعجب به الملك ويقدره حق قدره

ورفع السجين رأسه بسرعة ثم قال في اضطراب وقلق :

— ولكن يوي غداً

ثم عاد وتمالك نفسه وقال :

— غير أني الآن على استعداد . لي رجاء واحد . هل آمل أن تبلغوا هذه إلى زوجي ؟

فتكلم رئيس مجلس الشورى في هدوء :

— لقد مات الملك ، وأرجىء تنفيذ الحكم فيك . إن الملك الجديد سياسة أخرى ، ومن المحتمل أن يطلق سراحك غداً

فقال السجين في حزن عميق :

— مات ؟

فقال الآخر في حزم :

— أجل . مات !

فهب السجين واقفاً يمسح جبينه كالمحموم ثم قال :

— سيدى لقد كنت أجله وأحترمه . كان ملكا بكل ما فى هذه الكلمة من معان سامية ، وقد عاملنى معاملته لسيد عظيم . ذلك فضلاً عن زوجه الصغيرة الحسناء ، لكم أتمنى أن يبعث مرة أخرى ، وكان الدمع يجول فى عينى الرجل أثناء حديثه

ودقت الساعة الربع الثالث والملك يغادر السجن الرهيب

كان عطف عدوه أشد وقعاً على نفسه من غدر خلصائه ومحبيه . خير له أن يموت من أن يكون مديناً بحياته لمثل ذلك الرجل

غير أنه لم يسعه إلا أن يطرب لشعور الرجل نحوه وتقدير ما فى نفسه من نبل ومروءة ؛ وهان عليه الموت وسهل لأنه رأى أن محبة الناس له لم تكن إلا حلماً من الاحلام . إن هؤلاء الناس الذين تمب لهم وسهر عليهم لم يبلغوا بعد شأو من يحترم نفسه

— أين أصدقائى الآن ؟ . طفل غرير ، وعدو نبيل . إنهما كل ما لى من أصدقاء . وهل للحياة قيمة بعد ذلك ؟

ألا يجدر به أن يستسلم للقضاء . ولا يتمنى بعد الآن شيئاً ؟ لقد تلقى درساً بليغاً . فى وسعه أن يرقد فينام فينال الراحة الكبرى . لقد برزت القوة الالهية مسلكها مع الانسان الطامع الجهول . ماذا ينفع المرء أن يثبت عنده كذب أخيه ؟

وفارقه الأسف ، وذهب عنه الحزن ، وبرح الخفاء ، وتكشفت له الحياة

وتلبدت السماء بالسحب القاتمة فحجبت قرص القمر الزاهى . وهبت ريح باردة نالت من جسده المنهوك . وأحس عزلة موحشة تشمله ، ووحدة قاسية تكاد تصرعه ، وفاض قلبه يأساً وغماً

أحقاً ليس هناك من يهتم له ويحزن عليه ؟ إنه يهب كل ما لديه فى سبيل نظرة عطف حقيقية واحدة . كم يتوق الآن إلى شخص يبذل له من ذات نفسه ما يجمع عليه يده ويشد به عضده . كم يعوزه الآن أليف يتمه بنسمة وداده ويقبل عثاره لديه لحظات أخرى ثم ينتهى الأجل . كيف بالله احتمل عمره الطويل ؟ على أى حال لم تبق له إلا دقائق معدودة

وأحس سلوة فى نفسه وعزاء فى قلبه . نسى كل ما أساء به إليه الناس وصغر لديه شأنه وحقر فى عينى نفسه

ووقف لدى باب غرفة زوجه يقدم رجلا ويؤخر أخرى . ماذا يفعل لو وجد أمله الباقى سراباً ؟ ألا يجمل به أن يعود حتى لا تصرعه الحقيقة المرة ؟ غير أنه غمغم قائلاً :

— لم أكن يوماً ما جباناً ولا رعديداً

وكانت زوجه تجلس إلى جوار الوقد وحيدة تخفى وجهها بشعرها الأسود الوحف المسترسل . أحس عند ما رآها لأول وهلة بعطف نحوها يكاد يذيب منه القلب . وعجب كيف تسرب إليه الشك فى إخلاصها

وكان خاتمها الثمين يطوق بنصرها كعهده به منذ أن أهداها إياه ، ولم يكن بالغرفة ما يسترعى البصر سوى بريق حجره الأخاذ

وشعر بحنين إليها . ودهش لم تركتها وصيفاتها